مجلة الرائد

العدد : ٢١٢ الموافق في جمادى الأولى ١٤٢٠ هجري ٩ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : مصطفى أحمد الزرقا .. لمحات من ذكريات	بقلم : أ.عصام العطار

ما تزال جراحاتُنا تنزف لفقد الطنطاوي

واليومَ نفقد أيضاً علامتنا الكبير ، وأخانا الجليل ، وصديقنا الحبيب : مصطفى الزرقا ، تغمده الله بالرحمة والرضوان

عالَمٌ بكامله ، عصرٌ بكماله ، تحت أبصارنا ينطوي .. عالَمٌ من الإيمان والإخلاص ، والشجاعة والإقدام ، والإرادة والعزم ، والعلم والعمل والجهاد المتواصل على كل صعيد في سبيل الله عز وجل ، لتبيان دعوته ، وخدمة شريعته ، وإعلاء كلمته ، والتقدم بأمتنا وبلادنا في طريق الحرية والكرامة ، والقوة والعدالة ، والمعرفة والأصالة ، والازدهار المادي والمعنويّ

كان الطنطاوي والزرقا أخوين وفيين ، وصديقين حميمين ، جمعهما على خدمة الإسلام والمسلمين عمر مديد على كل صعيد ، وكان كلٌ منهما يحمل لأخيه وصديقه أصدق المحبة والتقدير

كان الأستاذ الزرقا يقول : أربعة رجال هم من نعمة الله عزّ وجل على الإسلام والمسلمين في هذا العصر ، وكان يصنفهم على حسب السن فيحتل الموقع الأول بينهم علي الطنطاوي

لم أعد أتذكر أوّل مرة سمعت فيها بالأستاذ الزرقا ، ولا أول مرة رأيته فيها ، وإن أخذت لقاءاتنا تتكرّر في أواخر الأربعينيات ، وأوائل الخمسينيات ، في مناسبات خاصة وعامة ، وفي بعض لقاءات " رابطة العلماء " ، وكانت رابطة العلماء في ذلك الحين تتكون من أكبر علماء الشريعة في بلادنا ، وكانوا يحبون أن أكون معهم في لقاءاتهم حتى أنهم عندما اجتمعت كلمتهم على عقد مؤتمر إسلامي في سورية سنة ١٩٥٥م يجمع علماء البلاد ومؤسساتها وجمعياتها ، والشخصيات الإسلامية البارزة فيها ، وعندما انعقد المؤتمر وانتخب هيئته المشرفة ، كان الإجماع أن أكون أميناً عاماً لهذه الهيئة ، وكان رئيس الهيئة الدكتور معروف الدواليبي

ونمت معرفتي وعلاقتي بالأستاذ الزرقا من خلال المناسبات والأيام ، وبعض لقاءاتنا بإخواننا وأصدقائنا المشتركين : الدكتور مصطفى السباعي ، الأستاذ علي الطنطاوي ، الأستاذ محمد المبارك ، والأستاذ عمر بهاء الأميري.. رحمهم الله جميعاً ، ثم تحولت المعرفة والعلاقة إلى أخوة متينة ، وصداقة وطيدة

* * *

كان الأستاذ الزرقا - رحمه الله - فقيهاً كبيراً مجدداً اجتمعت له أداة الفقه والتجديد على أفضل وجه. كان متمكناً من العربية ، عالماً بعلومها وآدابها. وكان ضليعاً في الشريعة والفقه ، أخذه عن والده ، ودرسه في المدرسة الخسروية في حلب ، ثم درس الحقوق والأداب في كلية الحقوق والأداب في دمشق ، فاجتمع له في وقت واحد المعرفة بالشريعة والقانون واللغة والآداب، وكان يعرف اللغة الفرنسية مما مكنه من الاطلاع على المراجع القانونية الأجنبية المعتبرة ، واقتباس ما رآه مناسبا من الأساليب الحديثة في البحث الفقهي وترتيبه، ومن التعرف إلى بعض الأحكام الجديدة التي نظّمتها التشريعات للأوضاع الحقوقية والاقتصادية الحديثة ، كشركات المساهمة وعقود التأمين. وقد أعانه هذا كلّه وهو أستاذ في كلية الحقوق ، ثم في كلية الشريعة التي أنشأت سنة ١٩٤٥م ، على أن يعرض الفقه الإسلامي في ثوب قشيب ، وأسلوب جديد ، يساير ذوق العصر ولغته ، وعلى أن يتصدى لمطلب كبير جليل : " أن أقلب صياغة الفقه الإسلاميّ ، فأبني من قواعده ومبادئه نظرية عامة على غرار نظرية الالتزام العامة في الفقه القانوني الأجنبيّ الحديث ، خدمة لفقهنا الإسلاميّ الجليل، كي يتجلّى ما فيه من جوهر نفيس كان محجوبا بالأسلوب القديم الذي أصبح عسير الهضم على رجال العصر. "

ولقد درّس الأستاذ - رحمه الله- في أكثر من جامعة في أكثر من دولة ، وشارك في أكثر من مجمع فقهي ، وأشرف على موسوعة الفقه الإسلامي في الكويت ، وعمل مستشاراً شرعيا في أكثر من مكان ومجال ، ومنح جائزة الملك فيصل العالمية عن مؤلّفه في النظريات الفقهية سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، وكان - ولاشك - فقيهاً من أكبر فقهاء المسلمين المجددين في هذا العصر

وكان - إلى ذلك كلّه مشاركاً في الحياة العامة في حلب ، ثم في سورية والعالم العربي والإسلامي ، ناضل الفرنسيين ناشئاً ، وناضل الاستعمار حيثما كان ، وحارب دعوات الإلحاد والفساد ، وأسهم في النشاطات الإسلامية والأعمال العلمية والاجتماعية والسياسية ، وكان نائباً أكثر من مرة ، ووزيراً أكثر من مرة ، وكان يتمتع في بلادنا بنصيب وافر من التقدير والاحترام

ولما كانت انتخابات سنة ١٩٦١ في سورية ، جمعتني والأستاذ عضوية البرلمان الجديد ، وأجمع النواب الإسلاميون على مختلف انتماءاتهم - لأسباب موضوعية في ذلك الحين - على أن أتولى قيادة الجبهة الإسلامية في البرلمان ، ولم يشعر الأستاذ الجليل بأي حرج في ذلك ، وأنا في السنّ ولدٌ من أولاده ، وفي العلم تلميذٌ من تلاميذه ، بل كان لذلك مؤيداً ومحبذاً ، وكان لي في البرلمان وبعد البرلمان ، وبعد أن شرّدنا وشتتنا الزمان ، نعمَ الأخ الحبيب ، والصديق الصدوق

ما أكبر قلبك ، وما أكرم خلقك أيها الأستاذ الجليل

* * *

آخر زيارة إلى المملكة العربية السعودية امتدت شهوراً ، من أواخر سنة ١٩٨٣ إلى أوائل سنة ١٩٨٤م ، وقد لقيت الأستاذ الزرقا في هذه الزيارة مرّات ومرّات ، عندي حيث أنزل ، وفي دعوات إخوة كرام من السعوديين ، ومن عرب ومسلمين آخرين مقيمين في الرياض ، ودارت بيننا أحاديث وأحاديث في مختلف الشؤون

وذات يوم هتف بي الأستاذ الزرقا وقال لي : أرجو أن تُخْلي لي نفسك ساعة هذا اليوم ، فأنا أريدك لأمر لا أحب أن يكون فيه معنا أحد ، واتفقنا على موعد

وفي الموعد المحدّد حضر الأستاذ وجلسنا ، وتعلقت به عينايَ تسألان دون كلام . قال : أتيت إليك أفتح قلبي ، وتبثّني ما في نفسك وأبثّك ما في نفسي ، ونبكي معاً ساعة من نهار

وكان - رحمه الله - قد فقد زوجته الثانية :" فخرية طاهر الذيل " أمّ ولديه مازن وعامر ، في ١٩٨٣/٥/٣٠م ، وكنت قد فقدت قبل ذلك زوجتي الشهيدة "بنان" في ١٩٨١/٣/١٧م ، وقصّ عليّ - رحمه الله -كيف توفيت زوجته الأولى : " وطفاء الأميري" أم نوفل وأنس ورفيدة ، سنة ١٩٤٢م ، وأنشدني بعينين مغرورقتين ، وصوت يتقاطر منه الأسى والحزن ، قصيدته في رثائها وبكى ، ثم قص علي قصة مرض زوجته الثانية « فخرية طاهر الذيل » وقرأ عليَّ رثائها وبكى وبكى ، وبكينا معاً إلى أن دهمنا الزائرون ، فرأوا آثار الدموع في العيون بعد أن كفكفنا الدموع

ويا لله للشيخوخة الحزينة الجليلة حين تبكي.. إنه مشهد يجلّ عن الوصف ، مشهد ما كنت لأنساه

ولم ألق الأستاذ الزرقا بعد وفاة ولده الأكبر : المهندس : نوفل ، إلاّ حديثاً على الهاتف ، ولم ألقه بعد وفاة ابنه الثاني الطبيب : مازن ، إلا بالهاتف أيضاً ، وإن شعرت بأنه بعد وفاة زوجه وولده الأول ، قد بدأ يشعر بالغربة العميقة والوحدة والتيتُّم

ودموع الشيخوخة الجليلة الحزينة التي سكبها عندي الأستاذ الزرقا ، تذكرني بدموع شيخوخة جليلة أخرى سكبها أمامي - وعلى انفراد أيضاً - الدكتور معروف الدواليبي على شريكة حياته : " أم محمد " رحمها الله

ونحن إذا ذكرنا الدواليبي فلا بد أن نذكر الزرقا ، وإذا ذكرنا الزرقا فلا بد أن نذكر الدواليبي ؛ فهما أخوان وصديقان حميمان من أكثر من ثمانين سنة -على التأكيد - ، من المدرسة الخسورية الشرعية في

حلب ، إلى الجامعة السورية طالبيْن ثم أستاذيْن ، إلى ميادين الحياة الواسعة الأخرى

والدكتور الدواليبي رئيس وزرائنا سابقاً ، ورئيس برلماننا سابقاً ، وأحد كبار زعماء بلادنا.. اتفقنا معه في الماضي واختلفنا ، ورضينا وسخطنا ، وجمعت بيننا سُبُل ، وفرقت سُبُل ؛ ولكن بقيت أخوّتنا وصداقتنا الحميمة ، وتقديرنا الكبير ، للعلاّمة الكبير ، والمثقف الكبير ، والرجل الإسلامي المناضل الفعَّال الشجاع

ذهبنا إليه - في زيارتي هذه التي ذكرتها للسعودية - معزّين بزوجته " أم محمد " وكانت قد تُوُفِّيت - رحمها الله - في بيروت ، فاستبقاني بعد انصراف من جئت معهم أو جاءوا معي..

وبكى هذا الشيخ الجليل الصَّلْد الصبور أمامي.. وبكى ، ثم فتح لي قلبه فحدثني عن " أم محمد " رحمها الله تعالى ، منذ أن عرفها إلى أن ودعها الوداع الأخير ، حديثاً لو استمع إليه الرجال والنساء لعرفوا كيف يكون الحبُّ والوفاء ، وكيف تكون المودة والرحمة بين الأزواج ، ولكان درساً بليغاً لكثير من الجاهلين والمقصرين

عفوك يا أخي معروف كشفت هذا الأمر الخاصّ ، وأنت قد لا تحب أن تكشف أمثال هذه الأمور ، ومدّ الله في حياتك الغالية ، ومتعك بالصحة والعافية ، فأنت الآن البقية الباقية من شيوخنا الكبار

* * *

وضَرَبَتْ أيدي الليالي - كما يقولون - بيني وبين الأستاذ الزرقا ، فهو في الكويت ، وهو في عمان ، وهو في الرياض.. وأنا في مدينة آخن في ألمانيا.. اتصل به بالهاتف ويتصل بي ، وأسأل عن أخباره أخي وصديقي الأستاذ نزار الخاني ، أو يحدثني هو عن أخباره دون سؤال ، وأسأل ولده وأخي العالم الفاضل الدكتور أنس. وقد علمت بمرضه الخبيث قبل أن يعلم به هو ، أنبأني بذلك بعض إخواني وإخوانه من الأطباء. واستمرت اتصالاتنا وقد ثقل سمعه وعجز عن المسير ، نتحدث أحياناً مباشرة بصوت مرتفع ، أو ينقل بعضُ من يحضره من أهله وزواره بيننا الكلام . ولم ينس أيضاً - وهو في حاله هذه - أن يرسل إلى" الرائد " مساعدته المادية الرمزية التي يرسلها كل عام

كان -رحمه الله- آية في صدقه ووفائه ودأبه ومثابرته ، وإرادته وهمته ، وحرصه على أداء واجبه على أفضل وجه. قبل أقل من ساعتين من وفاته كان عنده زائرون ، وناس يستفتون ، وهو يجيبهم بكل صبر ، ورحابة صدر.. وفي الساعة الرابعة من بعد عصر السبت ٢٠ ربيع الأول ١٤٢٠هـ ٣ تموز ١٩٩٩م انطفأ هذا السراج المنير ، وسكت هذا اللسان البليغ ، وتوقف هذا القلب الكبير.. ومات مصطفى

أحمد الزرقا

يا أخي مصطفى !

يا صديقي مصطفى !

يا حبيبنا ويا شيخنا مصطفى !! أنا أعلم أنّ قلبك كان يقطّعه - وأنت في غربتك ووحدتك ووحشتك - الشوق إلى حلب ودمشق ، وإلى أهلك وإخوانك وأصحابك في حلب ودمشق

أسأل الله أن يعوضك ، ويعوض أخاك الطنطاوي ، عن حلب ودمشق ، وعن الدنيا كلّها ، جنة عرضُها السماوات والأرض ، وأن يجعلكما مع النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين ، وأن يجزيكم عنّا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وإنا لله وإنا إليه راجعون